

الباب الثاني عشر

حب الاستطلاع - الحل والتركيب - الملاحظة -
التخويف - الخيال - أكاذيب الاطفال

obeikandi.com

حب الاستطلاع

يولد الطفل في العالم فيجده جديدا عليه ، ملائ بالمتحدثات . و تمر به ظواهر الطبيعة اليومية ، و حوادث الحياة المعتادة فيلقاها بمجولة لديه ، لا يعهد أسبابها ، ولا يدرك مسبباتها . وهو يعجب من سرها الخفي ، ويدفعه العجب إلى كشف غوامضها ، والبحث عن مكنوناتها .

فإذا راقبنا طفلا صغيراً نجده قوى الرغبة في لمس كل ما يحيط به من المحسّات ، ومعرفة كل ما يجرى حوله من الأمور ، وسماع كل ما يقال أمامه من الحديث . هذا لأنه تواق إلى تفهم كنه الأشياء ، ومنهزم بالمعرفة بدافع من غريزة حب الاستطلاع .

ويتنبه في الطفل حب الاستطلاع برؤية الأشياء الجديدة ، ومشاهدة الوقائع الغريبة ، وسماع الأصوات والكلمات غير المألوفة ، وما شابه ذلك من المؤثرات التي لا يعرفها فيعجب لها . ثم ينزع إلى فحص تركيبها وألوانها ويحاول مذاقها وتجربة صورتها إلى آخر ما هنالك من حيل توصله إلى العلم بخواصها .

وكثيرا ما يجازف الصغير بنفسه بدافع هذه الغريزة ، فيدنو من الأجسام الشاذة مأخوذا بطرافتها ، غير مبالي بما قد يداهمه من خطر ، فيحرق فيها منقبا عن أصلها وشأنها ، حتى يبلغ المستور من صفاتها .

وحالما يتعلم الطفل الكلام ، يكثر من الأسئلة عن كل شاردة وواردة تأتي في ميدان خبرته ، مستفهما عن مسميات الأشياء ، ومصادرها ، وفوائدها للإنسان ، وكيفية تكونها ، ومتناقشا في العلة والمعلول والبرهان متجاوزا في كثير من الأوقات حدود إدراكه ، ولكنه على وجه الإجمال ، يغير

موضوعات بحثه ، ويعدل مدى تشوفه ، ويبدل دائرة اهتمامه باستطلاع الأشياء تبعا لسير نموه . فهو يسأل مثلا لماذا يعوم البط؟ وماذا يرفع الطائرة؟ ومن أين تأتي الرياح؟ وكيف تدور الساعة؟ وإلى أين يمتد البحر؟ وأسئلة أخرى كثيرة متشابهة يلقيها علينا لفرط رغبته في المعرفة ، وحببه في استطلاع المعلومات .

ولهذا كانت غريزة حب الاستطلاع في الطفل أساسا لكل مطلب في العلم ، وباعثا لحصر الفكر والانتباه وبذل الجهد في التحصيل والابتاع . فكل طفل لديه من قوتها الطبيعية أكبر معين على توسيع مداركه ، والاستفادة من بيئته في السعي وراء الحقائق والإيلام بها . ومن هنا يتبين لنا ارتباط حب الاستطلاع باللعيب -- فالألعاب التعليمية التي نمد الطفل بها ، ليست مجرد وسائل للتسلية ، بل هي تصلح فوق ذلك كإحداث لاثارة حب الاستطلاع ، ولتحريك العجب والاستغراب في الطفل ، فيكبد في نهج المعرفة بالاستزادة من الخبرة والدراية الفعلية بهذه الأشياء .

وبما أن أسئلة الطفل الكثيرة صادرة عن هذه الغريزة ، فعلى أن نجيب عن كل سؤال منها بأسلوب يكون وفق مستوى عقله ، وفي حين فهمه ومقدور تفكيره ؛ فلا نعرض في ردنا عليه من المعلومات إلا ما يناسب منها حالة معيشتة ، وما يلائم سنه وحاجته .

وليس من الحكمة أن نعطي للطفل إجابة مباشرة عن جميع أسئلته ، إذ أن هناك طائفة منها يستحسن حثه على استنباط أجوبتها بالتقصي والملاحظة والتجربة العملية ؛ أو استخلاصها من قراءة الكتب والمجلات العلمية . وذلك بغرض إيقاظ روح البحث في الطفل ، وكسب المعرفة بذاته لذاته ، وإحساسه بلذة الفوز في الحصول عليها بجده وعمله . فإذا استفهم مثلا عما يحدث صوتا من دميته ، نجعله يفككها ليطلع بنفسه على الصنفارة التي تسبب هذا الصوت .



(الفيلسوف الصغير)

obeikandi.com

ومهما كانت أسئلة الطفل تافهة أو سخيفة أو غير معقولة ، فليس لنا أن
نستخر منها أو نذريها . وليس لنا في أى حال أن نجيب عنها بفتور ، أو نبدى
تضجراً من كثرتها ، لأن هذا قد يمس كرامته ، فيطفيء فيه حماسة الغريزة
ويضعفها ، ويجعله لا يسائل إلا قليلاً . وبذلك ينشأ قاصر العقل جامد التفكير .
وهناك أطفال يجدون من ذويهم إهمالاً واستخفافاً بأسئلتهم فيلجأون إلى
الخدم أو إلى البسطاء الذين يزودونهم بمعلومات غير صحيحة . وينتج عن
ذلك أن يصير نطاق معارف الأطفال ضيقاً ، وتحصيلهم غير مضبوط .
وغريزة حب الاستطلاع إن قويت واشتدت ، وأغفلنا تعهدها وتهذيبها
فإنها تجعل الطفل ذا ذلاقة وفضول . ولسكننا بحسن الاهتمام إلى جعلها
عماداً لمبنى تعليمه ، قد يصل بها أمره إلى أن يصير مبتكراً ومخترعاً وكاشفاً ،
إذ يسير في جهاد متواصل وبشغف متزايد في مسالك جديدة تقفه على جميع
مناحي العلوم والفنون المختلفة .

الحل والتركيب

كثيراً ما يدهشنا من أمر أطفالنا الصغار ، ويحيرنا منهم ميلهم إلى الهدم والتخريب تارة ، وطوراً إلى التركيب والتشييد . فهم متناقضو النزعة ، من مدمرين هائلين ، إلى بناءين عظماء . وما هذا إلا لأنهم في نفس السن التي يصبحون فيها محبين الاستطلاع . تظهر عندهم أيضاً غريزة مزدوجة يقترون فيها الميل إلى الحل والتكسير ، بالميل إلى التركيب والتكوين . فهم مثلاً يبنون مختلف الأشكال من الرمل ، ثم يهدمونها مرة بعد مرة واجدين في ذلك لذة عظيمة . وعند ما يأخذون منا لعبتهم ، يتأملونها ، ثم يشرعون في تحطيمها وإتلافها في بعض الأحيان . وقد يعكفون عليها منسغلين بها ، يوفقون أجزاءها ، ويحاولون إرجاعها إلى ما كانت عليه . وما رغبتهم في تكسيرها إلا بدافع الاستطلاع والوقوف على كيفية تركيبها ، والسر الذي يحركها . ولا يلبثون أن يعودوا ينظمون قطعها ، ويضمونها بعضها إلى بعض ، بغرض تجريب أثر قوتهم في إعادة بنائها بناتهم . وإبراز قدرتهم الشخصية على التكوين .

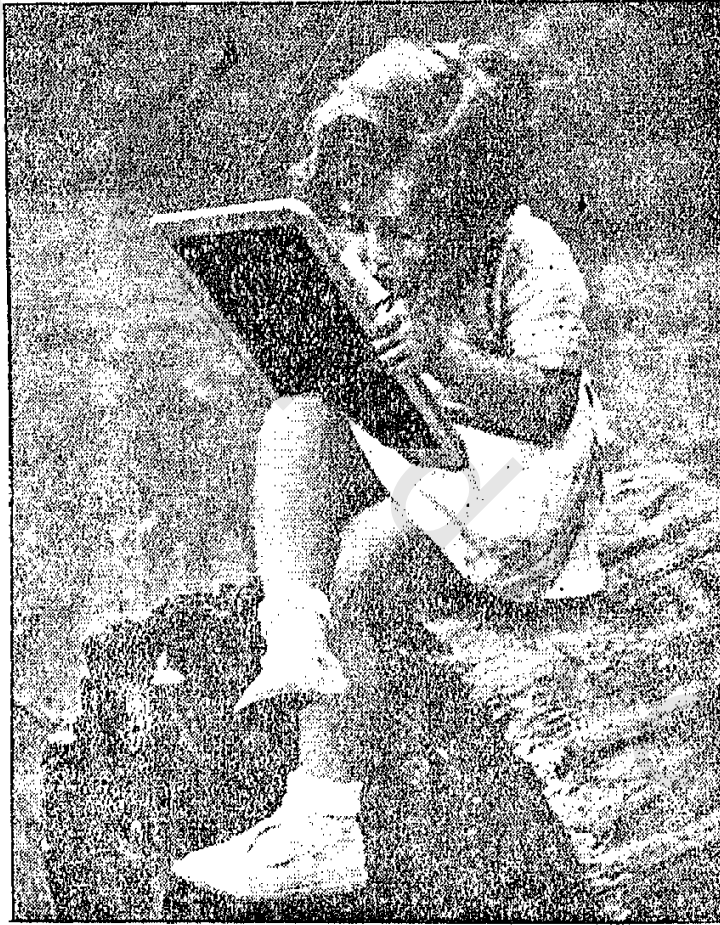
ولهذه الغريزة من الفوائد في تربية الأطفال ما لحب الاستطلاع والميل إلى اللعب بالمحسسات . ونحن نستطيع ترويضها وتهذيب مظاهرها بالطريقة عينها التي نتبعها في استخدام ذنك الميلين في تربيتهم وتهذيبهم . فنحن بتهيئة المكان الذي يكون مسرحاً يقوم فيه الطفل بالحل والتركيب من غير أن يخرجه أحد أو يزعجه إنسان . فإن وجدت بالبيت حديقة ، خصصنا جزءاً منها للطفل حيث يستطيع أن يشتغل بفلاحتها في أحيان كثيرة . ذلك إلى جانب النصيب العظيم من الاهتمام الذي يعطيه المربي لإرضاء هذه الغريزة أيضاً ، بتوفير القوالب المختلفة وكميات الرمل وكتل الصلصال والورق الملون والتسكير



(الانهماك في التركيب)

obeikandi.com

والفيل وخامات الأعمال اليدوية وأدوات الرسم والتصوير وبعض من
سقط المتاع كالصناديق الفارغة والأدوات المستغنى عنها وغير ذلك من المواد
التي يسهل على الطفل استعمالها في إنجاز ما يريد صنعه ، مثل إنشاء النماذج
للمنازل والمآذن والقناطر ، ولأنواع الأثاث الصغيرة والحيوانات والطيور
والفواكه ، ولماظر الشواطئ والمزارع والمدن ، إلى آخر ما هنالك من أشكال



(التكوين بالرسم)

يوصل هدمها ومعاودة بنائها ، فيؤلف من جديد طرقا لتحسينها بصيغة أفضل
وأفضل ، إلى أن يحكمها بائقان .

هذا وإن ما يجب أن نخذره في رعاية هذه الغريزة هو ألا نملئ على
الطفل كيفية حل لمُعبّه أو تكوينها ، فإن ذلك يضعف فيه قوة التفكير

والإبداع . ويحسن بنا دائماً أن نتركه وبداهته ليعبر عن قدرته الفردية الإبداعية بنفسه . وما علينا إلا أن نبعد من دون أن يشعر عن أعمال التدمير والتخريب إلى مشروعات الترميم والبناء ، فنقوم بإمداده بمواد الإبداع الأولية قبل أن نعطيه اللعاب المركبة القابلة للتكسير . فهذا نستهدفه إلى إنتاج عمل طيب يشعره بسرور النجاح بما في مقدوره من قوة فعالة ، ونغافله عن بواعث الهدم



(السرور بالعمل)

والتخريب والإفناء . وهكذا يترعرع في المجتمع فرداً عاملاً ومنشئاً لا مخرباً ولا مهلكاً .

وكثيراً ما يتبرم الكبار لنشاط غريزة التخريب في الطفل ، فيغضبون عندما تدفعه إلى إفساد الأشياء أو تدميرها بحيث لا يمكن إصلاحها أو ردها إلى أصلها . لذلك وجب أن نحضر له لعباً رخيصة لا تثقلنا خسارتها إذا ما قطعها أو خربها . ويخطئ كل من يعاقب الطفل على ما يتلفه أو يبيده من اللعب ، لأن هذا

يحملها على كبت نداء هذه الغريزة ، وإغفال دافعها فيشل فيه قوة النزوع إلى حلها لسبب حقيقتها واحتذاء نماذجها ، وبذلك تنقص الاستفادة من هذه اللعب ، ويقل أثرها في تربية حواس الطفل ومداركه ، وتنمية قوى التفكير والابتكار عنده .

الملاحظة عند الأطفال

في محيط الطفل الصغير أشياء كثيرة يلزمه الانتباه إليها وتلمسها بحواسه ليحيط بها خبراً ، ويلم بما يتعلق بها إلمام علم ومعرفة ، ثم يصور منها صوراً واضحة تتميز بها ، وتبقى في ذهنه واضحة تعبته على إدراكها والإحاطة بكنهها عندما ترد عليه في سبيل حياته .

وحصر الانتباه في جسم من الأجسام ، أو توجيه قوى العقل إلى واحدة من ظواهر الأعمال بغية زيادة الإلمام بها هو الملاحظة . فالطفل يلاحظ شيئاً ما إذا وجه إليه اهتمامه ولفت إليه حواسه بصفة خاصة لتوسيع معلوماته عن شكله وحجمه ولونه أو تعرف عناصره وصفاته ومسلكه ، أو فحص عوارضه الناتجة عن المؤثرات غير الظاهرة للعيان ، أو غير ذلك من أوجه الاهتمام بالبيئة التي يعيش فيها .

والملاحظة في الطفل هي العماد في نمو عقله ، والأساس الذي يبنى عليه علمه ، إذ أنها الأصل في استجماع الحقائق وإكثارها وتثبيتها في وعيه ، فتتخذها الذاكرة والخيال والحكم والتعليل والتفكير ليقيم كل منها على قواعدها نشاط أعماله المختلفة . وكلما كانت الملاحظة قريبة من حقيقة الأشياء ملتصقة بالواقع من الأعمال ، كان الإدراك المبني عليها صحيحاً ؛ وعلى العكس

إذا كانت قوة الملاحظة في الطفل ناقصة ، فإنها تسبب قصور إدراكه وخمول تفكيره .

وتربية الملاحظة في الأطفال تسير تربية الحواس وتتمشى في خطتها مع اللعب وحب الاستطلاع والحل والتركيب . فجدير بنا إذن أن نقويها فيهم وهم صغار حتى يزدادوا بحثاً وتأملًا في الأشياء على توالى نموهم ، وحتى



(الطفل بين الطبيعة)

يتعودوا الدقة وحصر الفكر وهم كبار . فملاحظة اختلاف الأشكال ، وتموجات الصوت وتدرج الألوان مثلاً ، ينشئ الطفل على حب التوازن والوفاق وتذوق الجمال في الأشياء فينمو فناً مهذباً ، وحساساً رقيقاً . وضبط



(النأمل في الطبيعة)

obeikandi.com

النظر وتدريب اليدين في تلمس الأجسام ، تكسبه الدقة اللازمة في إحكام الحرف والصناعات المختلفة . وتنبيهه إلى إدراك مقاسات الزمن والمسافات وقيمة الأعداد ، يمهّد إدراكه لدروس الحساب . وباستكمال مقدرته على الملاحظة والمقابلة بين الأشياء المادية ، يزدهر فهمه وتعقله للمعاني النظرية .

وأول ما يوقظ الملاحظة في الأطفال الأشياء التي تتعلق بذواتهم . لأن الإنسان يميل بطبيعته إلى الاهتمام بكل ما يتعلق بذاته . وإزاء هذا فإن مقدرتهم على الملاحظة تكون مقصورة في أول الأمر على تبين أمهاتهم أو مرضعاتهم ، ومحدودة في دائرة غذائهم وزيهم ولعبيهم .

وأشد ما يلاحظ الأطفال أيضاً الأشياء الجذابة والمتحركة . فهم يدققون النظر في الألوان البهية والأنغام المشجية والروائح الشذية والحركات المتغيرة ، إذ تستحوذ على انتباههم فيقتربون منها ، ويتفحصونها بكل جهودهم . والأطفال في بادئ أمرهم يلاحظون الأشياء متسرعين بغير دقة ، ومضطربين بغير ثبات . وذلك لأنهم لا يقوون على حصر فكرهم في شيء واحد لأمد طويل . فانتباههم يتحول من عمل إلى آخر ، ومن شيء إلى شيء بسرعة لقلّة ما لديهم من معلومات ، ولعدم الترابط بين هذه المعلومات . ومن أجل هذا كثيراً ما تكون مدركاتهم مغلوطة وناقصة ، وملاحظاتهم غير صحيحة . وهنا يجب التدخل لإرشادهم إلى الملاحظة على وجه التمام ، فنعودهم إلى معانٍ في النظر عند تحليل تفاصيلها ، وموازنة حالاتها وتمييز حقيقتها بروية لتصحيح أخطائهم واستيفاء معلوماتهم .

وتدريب الطفل على الملاحظة لا يقف عند تعويده أن يركز انتباهه فيما نروم من الأشياء التي نوجدها أمامه ، بل يتعدى هذا الحد ؛ إذ يجب أن نجعله يسعى نحو غاية معينة تحثه على حصر مجهوداته ، وتنسيق خطته للتوصل إليها وإتمامها

بأعظم مقدار من الدقة ، كأن ندرسه على ملاحظة الألوان بتلوين الرسوم والصور المختلفة ، وتفريق الأصوات بتوقيعها وإنشاد أنغامها ، وتمييز الحركات بتمثيلها واللعب بمحاكاتهما ، وتفحص الأشكال وترقب الحوادث بمطالعة الكتب المزينة بالصور ، والقصاص الموضحة بالرسوم ، ودراسة طبائع الحيوان وخواص النبات بتربية الدواجن وتعمد الحديقة وجمع نماذج الأزهار وأوراق الأشجار وريش الطيور والأصداف والصور المتنوعة وغير ذلك مما يثير فيه النشاط والحيوية .

وفي أوقات النزهة وخروج الطفل إلى الحدائق أو للتجوال في المدينة مناسبات لها أهميتها في توجيه ملاحظته إلى شتى الأشياء توجيهها مفيدا . ولا يمكننا في بعض الحالات أن نستعاض عنها بأية وسيلة من الوسائل أو التمرينات الشككية ، لأن هذا يطالعه على حقائق الطبيعة وشئون المعيشة الخارجية في أثناء ممارستها في ظروفها الفعلية بلا تكلف ؛ فيعثر على معلومات عنها ، ويقارنها بعضها ببعض ، ويصدر حكمه فيها بها . وهكذا يتعود السير في الحياة وهو مرهف القوى يترقب دقائق الأمور ويلاحظ كل ما يحدث حوله .

التخويف وأضرار القمع

وطرق التغلب على مخاوف الأطفال

أشد ما يخاف الطفل الصغير ، وما أكثر ما يفزع من مخاوف في السنين الأولى من حياته . فهو يذعر عند رؤية الحيوانات الكبيرة ، ويجزع من ملمس فراشها أو قرونها ، ومن منظر الدم والأسنان الكبيرة ، ويضطرب من الأشكال والأشباح والأشخاص الغريبة ، ومن الأصوات والحركات المبالغية التي لا يعرف مصدرها ، ومن الأماكن غير المعهودة ، ومن الظلمة والرعد والبرق والماء الكثير ، ومن كل شيء مجهول لا يمكنه إدراكه أو التحقق من محتوياته ، فيشير في نفسه الوهم بوجود الممالك . وهو أيضاً يخشى الألم وتوقع الزل . وإذا أمعنا في النظر لدى جميع هذه المخاوف ألفيناها بقية آثار في نفسه لتلك الأحوال التي أفزعت جدوده الأوائل في فجر تكوینهم ، حينما كانت الحيوانات المفترسة وغارات الأعداء وقوات الطبيعة المختلفة ، تهدد كيانهم بالأذى والعدوان ، وليس لهم مأمن يحتمون فيه منها ، وليس لديهم معرفة بأصولها العلمية حتى يطمئنون إلى أسبابها .

ولهذا كان الخوف وما يتبعه من الفرار هرباً ، من أهم غرائز المحافظة على البقاء في الإنسان ، ومن أعظم وسائل اتقاء المخاطر التي تحيط بحياته . وعند ما يستولى الخوف على الأطفال ينطلقون مسرعين نحو أمهاتهم أو ذويهم متعلقين بهم ، ويخفون رؤوسهم ووجوههم ، ويتوارون بين ثنيات أثوابهم ، طلباً إلى الاحتماء بهم من الضرر الذي قد يقع على حياتهم .

وينتابهم في أثناء رعبهم ، ارتجاف الجسم ، وخفقان القلب ، وامتقاع اللون . وتصيب العرق ، وبرودة الأطراف ، ووقوف شعر الرأس ، والبكاء . وينتج

عن الخوف الشديد جمود الفكر، ووقف الانتباه على الشيء المخوف ، وشلل الحركة ، وفقد الإحساس . وفي حالات الفزع القصوى قد تقف حركة القلب فيموت الطفل هلعاً .

وقد تترك الأعراض السابقة أثراً مستديماً في الطفل ، فتضر بجسمه وعقله وخلقه ضرراً بليغاً . ولذا وجب علينا تقليل الخوف وإضعاف حدته ، وتنشئة الطفل على أن يكون بريئاً غير متحيز ، وجسوراً لاقتحام مخاوفه . ويكون ذلك بالعوامل التي تضعف بواعثه الطبيعية وأهمها : —

(١) هدوء البيئة وسيادة النظام في المعيشة بحيث تخلو من الضوضاء العالية ، وأنواع الصياح المفاجئة ، والأثاث المرتبك ، والزوايا المهجورة حتى يظهر كل شيء واضحاً لدى الطفل فيسهل عليه التحقق من غوامضه .

(٢) تقريب الطفل من الحيوانات التي لا تؤذي ، مثل الكلب والقط والعضاير الصغيرة والسحفاة والأسماك الخمر ، وغيرها من الحيوانات التي يمكن أن يصاحبها ويداعبها ؛ ومقابلته بأصدقاء الأسرة حتى يأنس إليهم ويألفهم .

(٣) سرد القصص المستحبة عن القوى التي قد يخافها الطفل كالقصص الدينية ، وأساطير الطبيعة التي تشرح لهم هبوب الرياح ، وشروق الشمس وغروبها ، وتوالي الليل والنهار ، وحدث صدى الصوت والرع والبرق ، وحكايات عن أنواع الحيوانات ومعيشتها الخارقة في الأدغال ، وعن أجناس البشر وغير ذلك مما يفهمه كنه المجهول ، ويجلو له سر مخاوفه ، فيقتنع بأنها على غير أساس ، وبذلك تستنير بصيرته ، ويتحول خوفه الغريزي إلى الحذر والتبصر في عواقب الأمور .

(٤) تمثيل الشجاعة له بالقدوة في الإقدام وعدم التهرب وتجنب مظاهر

الخوف أمامه أو التصريح به أو التفوه بعبارات الذعر والانزعاج التي قد يقتبسها أو تشير انفعاله .

وبما أن لمخيلة الطفل شأنًا عظيمًا في خلق مخاوف مروعة يتصورها بنفسه ، فيجب إبعاده عن دواعي المغالاة في تخيل المخاوف المزعومة ، وتجنب إلقاء الحكايات المزعجة التي تخلق راحته بطيف الجان والمارد والغول والوحوش وصور الحوادث المرعبة ، والنفوس الشريرة وما إلى ذلك ، مما يتسلط على عقله ، فيفسد ابتهاجه بالحياة ، ويسبب شقاءه الدائم .

وإن تواعد الطفل بالحبس في الظلام ، والحرق بالنار ، ورميه في البحر ، وتسليمه لخلائق شنيعة غير معقولة ، نصورها أمامه لتفتك به فتفزع ، ويعمل على التخلص منها بالاذعان لما تفرض عليه من الأوامر والرغبات وغير ذلك من وسائل التخويف ، إن هذا لمن أسوأ طرق التربية والتأديب . وذلك لأننا نزيد من وطأة الخوف عليه ومن شدة التخيل الفظيع ، فنسلمه إلى قبضة الهواجس التي تخالج نفسه ، فتتعمس حياته ، وينتاب أعصابه الضعف ، فيغلب عليه الجزع والتردد وعدم الثقة بنفسه وبغيره ، وتتولاه الريبة في عطف والديه ويعيش مذعوراً منهما ، لا آمناً إليهما .

وكثيراً ما يبوح الطفل إلينا بما يختلج في صدره من المخاوف ، فنحاول أن نسري عنه بتصغيرها لديه ، أو بإظهار الاستخفاف بها ولكن هذا لا يبدها من فكره ، ولا يقنعه بالنجاة منها ، بل قد يمس إحساسه فيستاء منا ولا يعود يعترف بها ، وإنما يحفظها في داخله ويكتتمها عنا . والكتتمان يقوى الخوف في نفسه ويرهق قواه الجسمية والعقلية . وقد يتمكن منه أثره فتصعب عليه مغالبتها بعد ذلك .

فالإرهاق يعجز إرادة الطفل عن أداء الخير ، ويجعل باعث الصواب

فيه عن ذلة وجبن . وهذا يحتم علينا العدول عنه كلية ، وتهدة روعه بوداد وعطف حتى ينشأ هائناً مطمئناً إلى الحياة .

خيال الأطفال ومميزاته وأكاذيب الأطفال

إن من ضمن عناصر الجاذبية في شخصيات الأطفال خيالهم الثائر الفياض ، الذي تدور حوله جل أفكارهم وآمالهم ورغباتهم ومخاوفهم وأحاديثهم وألعابهم

فالطفل يغمض عينيه ليجول بذهنه في عالم الخيال ، ثم يفتحهما عن صور قد ألفها على قوائم من ذكرياته السابقة لمدرجات معهودة ، ويزهو بتصويرها واضحة ملموسة ، ويرويها لنا في قالب من الوصف مماثل للحقيقة والواقع . وهويين الثالثة والثامنة ، يكثر من تصورات الاستحضارية هذه . ويكون خياله في البدء مرتبطاً بألعابه ، ثم يزيد ويتسع عند ما يلعب بالدمى و«العرائس» ، إذ يطعمها ويتعهدا ويقوم بجميع حاجيات معيشتها ، كأنها حية ترزق . ويدخل على خيال الطفل مع اضطراب نمو إدراكه واتساع نطاق معلوماته ، بعض التغيير والتنميق والزخرف الوضاء ، ويبرزه لنا أحلاماً جليلة خارقة مذهشة ، مطلية بشتى المشوقات ، يحادثه فيها الحيوان ، ويلعبه الجماد وتضاحكه الأزهار ، وتسابقه الأشباح ، فيظن النبات يبكي إذا رآه مغطى بالندى ، ويتخيل السماء تذرف دموعها أمطاراً ، وهكذا يخرج كل منظر اعتيادي من دائرة خياله في صورة طريفة . وهو في نفس الوقت يميل إلى سماع الحوادث والقصص التي تحتوي على الخيالات الغريبة ، بما فيها من المجازفة في المآزق الوعرة ، والمخاطرة مع الوحوش ووسط النيران ، وغرائب الشذوذ في سرعة الطيران والانتقال ، وعجائب البطولة والانتصار ، ومعجزات إنطاق الجماد

وتجلى الإنسان في أجسام البهيم ، وغير ذلك مما لا حصر له من خرافات المآثر فوق العادية .

وفي هذا الطور ترسم الصور في عقله صافية وحية ومجسمة ، لدرجة أن أمرها يلتبس عليه ، فلا يستطيع التمييز بين واقع الحقيقة والخيال . وهنا ينطلق يحدثنا عن خياله ، ويشرد بنا في تيه أوهامه ، وهو لا يقدر أن يفرق بين ما قد حصل فعلا وما يتهيا ، فيخلط بين الرؤيا واليقين ، وهكذا يقع في كثير من الأكاذيب غير المقصودة .

ومن خداع الخيال في الأطفال ، أنهم يأخذون بناصية الأشياء من حيث يريدونها أن تكون ، ولا يأبهون بها كما هي ظاهرة للعيان . فيكسبون لها صفات ، ويكيفونها بحالات ، ويلصقون بها أعمالا بعيدة عن حقيقة أمرها ولكنها توافق أهواءهم ، وكأنهم يتعمدون التضليل والبهتان . وهناك ظاهرة أخرى لخيال الأطفال الواسع الغزير ، وهي اتخاذهم صحابة من الأصدقاء الموهومين أو المجسمين في الجماد والحيوان والنبات ، فيدمجونهم معهم في ألعابهم وأحاديثهم ، ويشركونهم في طعامهم وأعمالهم ، ويصبون عليهم عواطفهم المتقدمة وشعورهم المتأجج ، ويمثلون معهم أدواراً يفقدون فيها شخصيتهم كلية ، وقد ينسون أن هؤلاء الأصدقاء من تكوين خيالهم فيستأثرون إذا عوملوا على حقيقتهم .

هذا هو خيال الأطفال كما نرتئيه مع ما فيه من إفراط وتلفيق وهذيان ، وقد يتبادر لنا وجوب استئصاله حتى نأمن الشر الذي قد يرتكبونه من جرائمه .

ولكن قد اتضح لجميع المربين أنه من أعظم العوامل لتربية الخلق . فالطفل الذي يمثل دور الأمير والفارس والجندي . يشعر فعلا بنبالة الأمير وشجاعة الفارس وحماسة الجندي ، ويرتفع إلى مستوى عظمة كل منهم . وكل من أعمال

الظلم والقسوة تنشأ من ضعف الخيال الذى يعجز صاحبه عن أن يضع نفسه فى مركز غيره ممن يقاسون الظلم والعدوان .

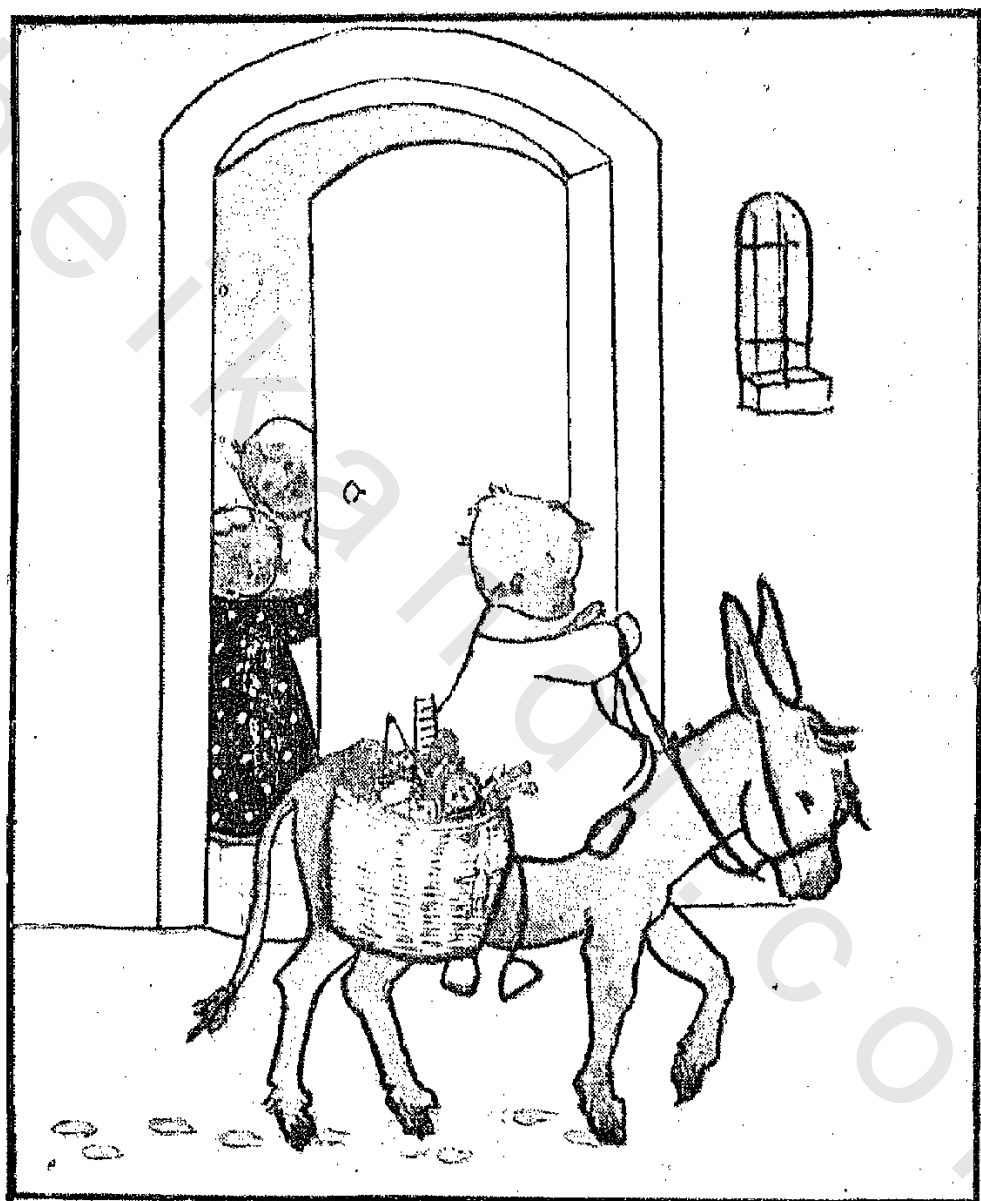
فالخيال الخاطيء إذا تعهدناه ، ينتقل من دور الحماقة إلى دور المعقول والعمل والإبداع . ويصير بذرة لسمو النفس وصفاء الوجدان ، ومصدراً لوحى الألفاظ والأنغام ، ولتصوير المعانى والأشكال فى كساء من الرقة والرشاقة والبهاء . ونما يحكى عن واحدة من الشعراء لما كانت طفلة بلغت ، من حدة الخيال ، أنها وهى سائرة فى الطريق ، كانت تنقل الحصى الذى تعثر عليه من مكان إلى آخر متوهمة أنها بذلك تسهل لهذا الحصى تغيير المناظر التى تحيط به من يوم لآخر . فالخيلة هى عين العقل التى نرى بها غير المنظور فى المنظور ، ونقدر بها الجمال المستور فى الأشياء العادية بل إنها بصيرة الإيمان بالقوى الخفية ، وإدراك الممكّنات المدخّرة فى بواطن الأمور ، وأساس الابتكار والمخترعات الإنشائية الجليلة .

وإذا كان للخيلة هذا القدر من الأهمية فى تكوين النشء وتربيته ، فكيف إذا نوفق بين تنميتها وتهذيب النواحي غير المستحبة منها ؟ نرى أن هذا يمكن بمراعاة ما يأتى :

أولاً — لا يجب التسليم للطفل بالتقادى فى تصوراتهِ وتخيالاتهِ الكاذبة ، كما أنه لا يصح مواجهته بالتأنيب ، أو اتهامه بالمخاتلة والخداع . بل يحسن بنا أن نستمع أولاً إلى ما يرويه علينا من تأليف خياله ، ونبدى له حسن الإصغاء والاهتمام ، حتى نعرف خواطره ومطامحه ، ثم نوقفه عند الحد المعقول منها ، ونوجهه فى طريق الصواب بمطالبتِهِ أن يسرد حوادث أخرى واقعية من مشاهداته ، ليتنبه فى أثناء إلقائها إلى الفرق بين إنتاج خياله ، والصحيح المثبوت بالحس ، وغير المرتاب فيه . وهكذا بالتدريج ينبذ أكاذيب تصويره ، فلا تلبث



من خيال الطفل الشارد



الفارس الصغير يتباهى بكنوزه

أن تتضاءل في ذهنه حتى تختفي ؛ بينما تتعمق آثار الصدق في مخه ، وتتألا بريق الحق والجمال .

ثانياً — نتعاون مع الطفل على تنسيق تخيلاته باطلاعه على الصور الجميلة الشائعة . فنوجد له الرسوم الرمزية لشرحها بتصنيف خياله ، والكتب التصويرية ليصفها بلغة بيانه ، والحكايات المصورة ليصنع حوادثها بنسيج عبقريته ، والدميات والتحف المليحة ليوشها بطلاوة أفكاره .

ثالثاً — نسهل للطفل الاتصال بنبات الطبيعة وشواهد حياتها ، فيلدها بيد العلم والكماسة ، ويتخذ من مظاهرها مادة تملأ مشاعره بالسرور ، وألفاء حقيقيين يبعثون السلوة في نفسه ويأخذون بمجامع قلبه .

رابعاً — نفسح المجال للتخيل العملي ، بشغل الطفل في التعبير عن مشروعات خياله بالرسم ، أو تشكيلها بعمل المناظر المأخوذة من الحكايات والأحداث والأحاجي والوصف البهيج البسيط ، والتي تشجعه على تصميمها ، وترغبه في السعي لتحقيقها .

خامساً — نقرأ على الأطفال مختارات في متناول فهمهم من صحائف آداب اللغة والشعر السهل الرائع ، ونسمعهم مقتبسات من القطع الموسيقية والنغم الجميل ، ونحفظهم مقطوعات ملحنة ، وبعض حركات إيقاعية لتمثيل ما ينطوى تحتها من المعاني المشتقة من تفتح الأزهار ، ويقظة الربيع ، وتغريد الطيور ، وتناول الخشخاش ، وشمائل الحيوان ، وغير ذلك من الأوضاع التي تشعره بلذة الخيال الراقى ، والإبداع في التفنين .

سادساً — نلقى على الطفل الأقاصيص والأساطير التي تحتوى على أبهج الحوادث والتي تكفي حاجة الطفل وتأخذ بيده إلى المثل الأعلى ، وتوضح له منشأ المعرفة بالأشياء وسر غوامضها .